خطبة صلاة الجمعة 13/7/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(براءة الذمة 1)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾, [الأنبياء: 94].

وقال الله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾, [سورة يس: 53-54].

روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **((يَحشُر الله العباد يوم القيامة –أو قال: الناس– عُراة غُرلاً بُهماً, قال: قلنا: وما بُهماً؟ قال: ليس معهم شيء, ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الديّان, أنا المَلِك, لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى**

أقصه منه, ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه, حتى اللطمة, قال: قلنا: كيف؟ وإننا نأتي عُراة غُرلاً بُهماً قال: الحسنات والسيئات)).

أيها الإخوة:

في أحوال الدَّعة والرخاء، يحسن بالإنسان أن يذكر الموت، ليبتعد قليلاً عن ترف الحياة, ويجهز رحاله للآخرة، فكيف إذا كان الموت يطوف حوله ويشعر بقربه منه مرات ومرات...؟!

ولكثرة الموت وتوقع حدوثه؛ ستكون خطب الجمعة الأربعة في رمضان بعنوان: "براءة الذمة".

لِتُذكر بالاستعداد للوقوف بين يدي الله في أقل درجات الاستعداد؛ براءة الذمة.

خاصةً والناس مقبلون على الله صائمون وقائمون, ويبحثون عما يزيد قربهم منه جل جلاله.

ستذكر السلسلة أموراً تعين على سلامة الذمة ونقائها, كي يكون المرء فينا جاهزاً للقاء الله تعالى متى نودي.

قرأت في كتاب اسمه: "سير أعلام النبلاء" يترجم لأعلام نبلاء هذه الأمة، قرأت فيه مراراً عن رجالات كانوا مستعدين دائماً للقاء الله, ببراءة ذممهم, وكثرة برهم وأعمالهم الصالحات .

ففي ترجمة الإمَام الحَافِظ الفَقِيْه صَفْوَان بن سُلَيْمٍ الزُّهْرِيّ المَدَنِيّ –ت 132هـ – قال معاصروه: (لَوْ قِيْلَ لَهُ: غَداً القِيَامَةُ، مَا كَانَ عِنْدَه مَزِيْدٌ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ).

وجاء في ترجمة الإمَام ابْن أَبِي ذِئْبٍ, مُحَمَّد بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ العَامِرِيّ الفَقِيْه –ت158هـ–: (لَوْ قِيْلَ لَهُ: إِنَّ القِيَامَةَ تَقُوْمُ غَداً، مَا كَانَ فِيْهِ مَزِيْدٌ مِنَ الاجْتِهَادِ).

وقَالَ بُكَيْرٌ بنُ عَامِرٍ عن الإمام الرباني الحجة عبد الرحمن بن أبي نعيم البَجَلي –ت بعد المائة–: (كَانَ لَوْ قِيْلَ لَهُ: قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكَ مَلَكُ المَوْتِ، مَا كَانَ عِنْدَهُ زِيَادَةُ عَمَلٍ).

وفي ترجمة مَنْصُوْر بن زَاذَان –ت131– قال هُشَيْمٌ: (كَانَ مَنْصُوْرٌ لَوْ قِيْلَ لَهُ: إِنَّ مَلَكَ المَوْتِ عَلَى البَابِ، مَا كَانَ عِنْدَه زِيَادَةٌ فِي العَمَلِ).

ومثل ذلك قيل في حماد بن سلمة بن دينار, قالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ: (لَوْ قِيْلَ لِحَمَّادِ ابنِ سَلَمَةَ إِنَّكَ تَمُوْتُ غَداً، مَا قَدِرَ أَنَّ يَزِيْدَ فِي العَمَلِ شَيْئاً).

فماذا بشأني وشأنك إذا قيل لأحدنا: غداً تموت؟! أو غداً يوم القيامة؟!

أيها الإخوة:

جرت العادة لمن قرّر السفر أن يبادر إلى تجهيز مستلزمات رحلته, وحزم أمتعته, وإعداد حقائب سفره، وأداء الأمانات إلى أهلها، وتوكيل غيره بما لم يستطع إنهاءه، وكلما اقترب موعد السفر اشتد الاهتمام بالجَهَاز.

فكيف سيكون الاستعداد إن كان السفر إلى دار لا رجوع منها؟!

جاء في وصية أمير المؤمنين "علي" عليه السلام لولده "الحسن":

"وإنك طَرِيدُ الموت الذي لا ينجو منه هاربُه، ولا يفوته طالبُه، ولا بد أنه مدركُه، فكن منه على حذر, أن يدركك وأنت على حالٍ سيئة، قد كنت تُحدّث نفسك منها بالتوبة، فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك.

يا بني أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجم عليه، وتُفضي بعد الموت إليه, حتّى يأتيك وقد أخذت منه حذرك, وشددت له أزرك ولا يأتيك بغتة فيبهرك".

وحسبكم – أيها الإخوة – ما جاء في تاريخ الطبري: عن الْفضْل بْن عبّاسٍ، في تبرئة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذمته, وحرصه على الاستعداد للقاء الله، وهو من هو صلى الله عليه وسلم؛ طاعة وعبادة ومنزلة ومقاماً...

روى الطبري في تاريخه, بسنده عن ابن عباس عن الفضل بن عباس رضي الله عنهم قال:

جاءني رسول الله صلّى الله عليْه وسلّم فخرجْت إليْه, فوجدْته موْعوكًا, قدْ عصب رأْسه، فقال: **((خذْ بيدي يا فضْل))**, فأخذْت بيده حتّى انْتهى إلى الْمنْبر فجلس عليْه، ثمّ قال: **((صِحْ في النّاس))**, فصِحْت في النّاس، فاجْتمع ناسٌ، فحمد الله وأثْنى عليْه، ثمّ قال:

((يا أيّها النّاس، ألا إنّه قدْ دنا منّي حقوقٌ منْ بيْن أظْهركمْ، فمنْ كنْت جلدْت له ظهْرًا فهذا ظهْري فلْيسْتقدْ منْه، ألا ومنْ كنْت شتمْت له عرْضًا فهذا عرْضي فلْيسْتقدْ منْه، ومنْ كنْت أخذْت

منْه مالا فهذا مالي فلْيسْتقدْ منْه، لا يقولنّ رجلٌ: إنّي أخْشى الشّحْناء منْ قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليْه وسلّم، ألا وإنّ الشّحْناء ليْستْ منْ طبْعي ولا منْ شأْني، ألا وإنّ أحبّكمْ إليّ منْ أخذ حقًّا إنْ كان له، أوْ حلّلني فلقيت اللّه وأنا طيّب النّفْس، ألا وإنّي لا أرى ذلك مغْنيًا عنّي حتّى أقوم فيكمْ مرارًا)).

ثمّ نزل فصلّى الظّهْر، ثمّ عاد إلى الْمنْبر، فعاد إلى مقالته في الشّحْناء وغيْرها، ثمّ قال:

((يا أيّها النّاس، منْ كان عنْده شيْءٌ فلْيردّه ولا يقولْ: فَضُوح الدّنْيا، ألا وإنّ فَضُوح الدّنْيا أيْسر منْ فَضُوح الآخرة)).

فقام إليْه رجلٌ فقال: يا رسول اللّه، إنّ لي عنْدك ثلاثة دراهم، فقال: **((أما إنّا لا نكذّب قائلاً, ولا نسْتحْلفه، فبم صارتْ لك عنْدي؟))**.

قال: تذْكر يوْم مرّ بك مسْكينٌ فأمرْتني أنْ أدْفعها إليْه؟ قال: **((ادْفعْها إليْه يا فضْل))**.

ثمّ قام إليْه رجلٌ آخر فقال: عنْدي ثلاثة دراهم كنْت غللْتها في سبيل اللّه، قال: **((ولم غللْتها؟))**, قال: كنْت إليْها محْتاجًا، قال: **((خذْها منْه يا فضْل))**, ثمّ قال: **((يا أيّها النّاس، منْ خشي على نفْسه شيْئًا فلْيقمْ أدْعو له))**.

فقام إليْه رجلٌ فقال: يا رسول اللّه، إنّي لكذّابٌ، وإنّي لمنافقٌ، وإنّي لنئومٌ، قال: **((اللّهمّ أرْزقْه صدْقًا وإيمانًا، وأذْهبْ عنْه النّوْم إذا أراد))**.

ثمّ قام إليْه رجلٌ آخر فقال: واللّه يا رسول اللّه، إنّي لكذّابٌ، وإنّي لمنافقٌ، وما منْ شيْءٍ من الأشْياء إلا وقدْ أتيْته، فقال له عمر: يا هذا، فضحْت نفْسك، قال: **((مهْ يا ابْن الْخطّاب، فَضُوح الدّنْيا أيْسر منْ فضوح الآخرة))**, **ثمّ قال: ((اللّهمّ ارْزقْه صدْقًا وإيمانًا، وصيّرْ أمْره إلى خيْرٍ))**.

فكلّمهمْ عمر بكلمةٍ، قال: فقال عمر بْن الْخطّاب رضي اللّه عنْه: يا رسول اللّه، رضينا باللّه ربًّا، وبالإسْلام دينًا، وبمحمّدٍ نبيًّا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليْه وسلّم: **((أنا منْ عمر وعمر منّي، والْحقّ بعْدي مع عمر حيْث كان))**.

أيها الإخوة:

الذمة في اللغة: العهد والأمان والضمان.

وفي الشرع: تطلق الذمة على محل الالتزام، فهي محل الضمان والوجوب.

وذمة الإنسان تنشأ مع وجوده، وتتسع لكل التزاماته، ولا تنتهي بموته، بل تبقى حتى تصفى الحقوق المتعلقة بالتركة، وتستوفى الحقوق من هذا الإنسان، لقوله عليه السلام: **((نفس المؤمن مُعَلَّقة بدَيْنِه حتى يُقْضَى عنه))**, رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة، وهو صحيح.

والصواب لمن عليه حقوق أن يؤديها إلى أصحابها، فإن عجز أوصى بذلك لتخرج الحقوق من تركته قبل اقتسامها، ليكون بريء الذمة.

قال صلى الله عليه وسلم: **((من كانت عنده مظلِمَة لأخيه من عِرضِهِ أو ماله، فليؤدها إليه، قبل أن يأتي يوم القيامة لا يقبل فيه دينار ولا درهم, إن كان له عمل صالح أُخذَ منه، وأعطي صاحبه، وإن لم يكن له عمل صالح، أُخذَ من سيئات صاحبه فحملت عليه))**, أخرجه البخاري والترمذي وأحمد.

ومما يُشَوش على براءة الذمة: المماطلة بحق مع القدرة على الوفاء, لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **((مَطْلُ الغَنِيّ ظُلْمٌ))**.

ومما يُشَوش على براءة الذمة: أن يظلم المرأة حقها من صداقها ونفقتها وكسوتها وهو داخل في قوله صلى الله عليه وسلم: **((لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ))**, رواه البخاري.

ومما يُشَوش على براءة الذمة: أن يستأجر إنساناً في عمل, ولا يعطيه أجرته, لما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: **((ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة, ومن كنت خصمه خصمته:** – وعد منهم – **ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل, ولم يعطه أجرته))**.

ومما يُشَوش على براءة الذمة: أن يحلف على دين في ذمته كاذباً فاجراً, لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **((من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار, وحرم عليه الجنة, قيل: يا رسول الله, وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإن قضيباً من أراك))**.

هذه صور معدودات تشوش على براءة ذمة المرء، فتجعل العاقبة ضيقاً.

أما من اجتهد ببراءة ذمته, وأعطى الحق من نفسه, وأحسن العمل، فإن السعادة كل السعادة بانتظاره, وإن الخير كل الخير حليفه، وحسبكم هذه الآيات في سورة الصافات أختم بها الخطبة تبشر أصحاب الذمم النقية:

﴿إلّا عباد اللّه المخلَصين * أولئك لهم رزقٌ معلومٌ * فواكه وهم مكرمون * في جنّات النّعيم * على سررٍ متقابلين * يطاف عليهم بكأسٍ من معينٍ * بيضاء لذّةٍ للشّاربين * لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزَفون * وعندهم قاصرات الطّرف عينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ .

أيها الإخوة:

هذا تقديم بين يدي حديثي عن براءة الذمة، وفي الخطب القادمات بإذن الله بيان للذمم المترتبة على العبد, سواء في: حق الله تعالى, أو حقوق العباد، وفيها أليات تبرءة الذمة .

والحمد لله رب العالمين